تاريخ شعراء العربية

شعراء العصر العباسي الأول

مروان بن أبي حفصة



إعداد وشرح
لجنة التحقيق في دار القلم العربي

مراجعة وتدقيق
أحمد عبد الله فرهود



منشورات

دار القلم العربي بحلب

الطبعه الأولى

١٤١٨ هـ ـ ١٩٩٧ م

عنوان الدار

سُوريَة ـ حَلَبْ ـ خَلفَ الفُنْدُقِ السيَّاحِي

شارع هدى الشِعْرَاوي

هاتف | ٢١٣١٢٩ | ص.ب |٧٨| فاكس ٠٢١،٢١٢٣٦١

بسم الله الرحمن الرحيم

اسمه ومنشؤه

هو مروان بن يحيى بن سليمان بن يزيد ، وكنية يزيد أبو حفصة وكان أبو حفصة من خراسان ، فأسلم ، وكان مولى لمروان بن الحكم وَهَبَهُ له عُثمان بن عفان رضي الله عنه ، ويقال إنه أبلى في الدفاع عنه حين حوصر في داره وقُتل ، فأعتقه مروانُ جزاءَ بلائه ، ولما وليَ مروان بن الحكم المدينة المنوّرة لمعاوية بن أبي سفيان رضي الله عنهما ولّاه على خراج اليمامة ، وهناك تزوّج من امرأة عربية ، فأنجبت له ولداً سمّاه يحيى ، وهو جدّ مروان بن أبي حفصة وكان يحيى شاعراً ، وكان ابنه سليمان شاعراً ، وكان حفيده مروان بن سليمان بن يحيى شاعراً .

نشأ مروان في اليمامة ، حيث استقرّت أسرته ، وجرَى الشعر على لسانه مبكّراً ، وكان مولده سنة / ١٠٥ / هـ . وهذا يعني أن لمروان أشعاراً كثيرة قبل سقوط دولة بني أميّة عام / ١٣٢ / هـ ، غير أنّ اسمه لم يلمع إلا في الدولة العبّاسيّة .

أهمّ من مدحهم

من أشهر الذين مدحهم مروان بن سليمان الخليفة المهدي ، وقد أُعْجب بمدائح مروان ، التي لم تكن تتحدّث عن كرم الخليفة وشجاعته الكريمة فحسب بل جنَحت أيضاً للمديح السياسي ، إذ دافع عن حقوق العباسيين في الخلافة وردّ على خصومهم وما يدّعونه من هذه الحقوق ، ولعلّ شاعراً لم يبلغ في هذا

الدفاع مبلغه ، إذْ كان يعرفُ كيف ينقضّ على منافسي العباسيّين ، على نحو ما نرى في قوله :

هل تطمِسُون من السَّماءِ نجومَها　　بأكفِّكم أو تستُرون هلالَها
أو تجحَدُون مقالةً عن ربِّكم　　جبريلُ بلَّغها النبيَّ فقالَها
شهِدَتْ من ((الأنفال)) آخرُ آيةٍ　　بتُراثِهم ، فأردتُم إبطالَها

وهو يريد بآية الأنفال قوله تعالى : ﴿ والذين آمنوا من بَعْد وهاجروا وجاهدوا معكم فأولئك منكم ، وأولو الأرحام بعضُهم أولى ببعضٍ في كتاب الله ، إنّ الله بكلِّ شَيْءٍ عليم ﴾ .

يشير بذلك إلى حقّ العباسيّين في وراثة الخلافة ، وأنَّهم مقدَّمون في هذا الحقِّ ، لأنّهم أعمام ، والأعمام مقدَّمون في الوراثة على الأسباط .

وقد أعجب المهدي بالقصيدة السالفة أيّما إعجاب ، وبلغ مِنْ فَرْط إعجابه أنْ سأل : كم عدد أبياتها ؟ فقال مروان : مئة ، فأمر له بمئة ألف درهم وكانت أوّل مئة ألف درهم أخذها شاعر في أيام بني العباس . ومضى مروان يردّد في مديحه للمهدي هذا الدفاعَ السياسي عن حقّ العباسيين في وراثة الخلافة وهو يُغْدق عليه من عطاياه الجزيلة ، ومن قوله أيضاً في هذا المِضْمار :

يا بنَ الذي ورثَ النبيَّ محمداً　　دونَ الأقاربِ من ذوي الأرحامِ
الوَحْيُ بين بني البناتِ وبينكم　　قَطَعَ الخصامَ فَلاتَ حينَ خِصَامِ
ماللنساءِ مع الرجالِ فريضةٌ　　نزلتْ بذلك سورة الأنعامِ
أنّى يكونُ وليس ذاك بكائنٍ　　لبني البناتِ وراثةُ الأعمامِ

ومنذ اتّصاله بالمهدي طَفِقَ يمدح الخلفاء ومَنْ والاهم ، وهم ينهالون عليه عطاءً غدَقاً ، فمدح بعد المهدي ولديه الهادي والرشيد ، ومدح البرامكة

لكــنّ جــلّ مدائحه كـانت في والي اليمـن ثـم سِجِسْتان ((معـن بـن زائـدة الشيباني)) .

المال عند مروان

مروان شاعر كبير أصاب شهرة واسـعة ومـالاً كثـيراً عـن طريـق شـعره الذي وقفه على المديح دون غيره من أغراض الشعر إلا في حالات قليلة جدّاً من رثاء أو وصف .

وربح مروان بن أبي حفصة من شعره ما لم يربحْه شاعر آخر من شـعراء العربية ، حتى كان يتقاضى من بني العباس ألفَ درهم على كلّ بيت من الشـعر يقوله فيهم ، هذا فضلاً عن الأموال الضخمة التيَ حصل عليها من معن بن زائدة في حياته ، ومن ولده شراحيل بعد مماته .

مع ذلك كان مروان متواضعـا في لباسـه ، يزْهـد في الثيـاب النفيسـة فَيَصِلُ إلى باب المهدي وعليه فَرْوُ كبش ، وقميص خَشِنٌ ، وعمامة مصنوعة من كرْباس ، وهو قماش خشن رديء ، وخف رخيص ، وكساء غليظ .

قيمة العطاء

يُكثر مروان بن أبي حفصة في مدائحه من الإشادة بخصلة الجود والعطـاء عند ممدوحيه ، فهو يقول :

له راحتانِ : الجودُ والحتفُ فيهما　　　أبى الله إلا أنْ تُضُرًا وتنفعا

ويقول :

هم القومُ إنْ قالوا أصابوا ، وإنْ دُعُوا

أجابوا ، وإنْ أعطَوْا أطابوا وأجْزَلُوا

ويقول :

لا تعجبوا راحتَي مَعْنٍ فإنّهما بالجود أفْتَتنا يحيى بنَ منصورِ
لمَا رأى راحتَيْ معن تدفّقتا بنائل مِنْ عطاءٍ غير منزورِ
ألقى المسوحَ التي قد كان يَلْبَسُها وظَلّ للشعرِ ذا رَصْفٍ وتَحبِيرِ

ويقول :

إنّ مَعْناً يحمي الثغور ويُعطي ماله في العُلا وأنتَ كذاكا
لكَ مِنْ فَضْلِ بأسِهِ يُعْرَفُ البَأس كما مِنْ نداه فضلُ نداكا

وفي الرثاء يقول أيضاً :

أقمنا باليمامةِ بعد مَعْنٍ مُقاماً لا نريدُ به زَوالا
وقلْنا أين نَرْحَلُ بعد معنٍ وقد ذهبَ النَّوالُ فلا نَوالا

وذِكْرُ مروان لهذه الخصلة في ممدوحيه ، وفي رثائه ، وتواضعُه في لباسه وبعضُ قصص تُعْزَى إليه تنطوي على البخل ، ممّا يدلّ على حبّه للمال وتمسّكِهِ وضنّه به في نظر قليل ممّن درسوا حياة هذا الشاعر . ولكن هذه المسألة في حاجة إلى تحقّيق .

بداية اتصاله بالمهديّ

دخل مروان بن أبي حفصة على المهدي ، بعد وفاة معن بن زائدة فقال له المهدي : ألستَ القائل :

أقمنا باليمامةِ بعد مَعْنٍ مُقاماً لا نريدُ به زوالا
وقلْنا أينَ نرحلُ بعد مَعْنٍ وقد ذهب النَّوال فلا نوالا ؟

لقد ذهبَ النَّوالُ فيما زعمتَ ، فلِمَ جئت تطلبُ نوالَنا ؟ لا شيء لك عندنا ، ثم أمر به فجُرّ برجله حتى أُخرج . هنالك ألّف قصيدة يدافع فيها عن

حقّ العباسيين في الحكم ، ودخل على المهدي في العام التالي في مجموعة الشعراء الذين كان الحكّام العباسيون يفتحون لهم أبوابهم مرَّة في كلّ عام ، وأنْشَدهُ قصيدته :

طرقتْكَ زائرةً فحيِّ خيالَها بيضاءُ تخلِطُ بالجمالِ دَلالَها

وعرَض الفِكْرَةَ العباسيّة في الحُكْم ، وقد تقدّمت الأبيات التي تعبّر عن تلك الفِكْرة ، فأعجب بها المهدي ، وأثابه مالاً كثيراً . وهذا يدل على أنّه كان ذا فطْنةٍ في اقتناص الهِبَات والمِنَح ، ساعدتْه على ذلك قدرته الشعرية وصناعته المستأنية ، فعوّض ما فاته في العام السابق .

موقفه من بني أميّة

سأل الرشيدُ مروانَ بن أبي حفصة : هل دخلْتَ على الوليد بن يزيد ؟ قال مروان : دخلتُ مع عمومتي إليه . قال الرشيد : فأخبرني عنه . فأصاب مروانَ حرجٌ في القول وجعل يتزحزح في مجلسه . فطمْأَنَهُ الرشيد ، وقال له : إنّ أمير المؤمنين لا يكره ما تقول ، فقل ما شئت . فقال : يا أمير المؤمنين كان من أجمل الناس وجهاً ، وأشدّهم قوّة ، وأشعرهم ، وأجودهم ، دخلت عليه مع عمومتي ولي لمّة فينانة (١) ، فجعل يغمز القضيب فيها ويقول : ولدتْك سُكّر (٢) .

ومن شعره في بني أُمَيَّة :

بنو مروانَ قومٌ أعتقوني وكـلُّ النـاس بعدَهم عبيدُ

---

(١) لمّة فينانة : شعر كثيف .

(٢) سُكّر : إحدى جدّات مروان بن أبي حفصة .

ويبدو أن مثل هذا القول – لولا حَيْفُه في الشطر الثاني يدلّ على وفاء مروان بن أبي حصفة ، فهو قد حفظ صنيعة بني أمية إذْ أحسنوا إليه ، وأشاد أيضاً بصنائع مَنْ أسدَوا إليه معروفاً من العباسيّين .

حال الجريض دون القريض (١)

قال مروان بن أبي حفصة : دخلتُ أنا وطريح بن إسماعيل الثقفي والحسين بن مطير الأسدي في عِدّة من الشعراء على الوليد بن يزيد ، وإذا رجلٌ كلّما أنشد شاعر شعراً وقفَ الوليد على بيتٍ منه (٢) ، وقالَ : هذا أخذه من موضع كذا وكذا ، وهذا المعنى نقله من شعر فلان . فقلت : مَنْ هذا ؟ قيل : حمّادٌ الراوية . فلما وقفتُ بين يدي الوليد لأنشده قلتُ ما كلامُ هذا (يعني حماداً) في مجلس أمير المؤمنين ، وهو لحّانة (٣) فتهافت الشيخ (حماد) – أي سخر ضاحكاً – ثم قال : يا بن أخي أنا رجل أكلّم العامّة ، وأتكلّم بكلامها فهل تروي من أشعار العرب شيئاً ؟ فذهب عني الشعر ، إلا شعر ابن مقبل . فقلت : نعم ، لابن مقبل ، فأنشدتُه :

سل الدارَ من جنبَي حِبِرٍ فواهبٍ إلى ما رأى هضبَ القليبِ المُضَيَّحُ (٤)

---

(١) مثل يُضرب لأمر يعوق دونه عائق ، والجريض : الهم والخوف .

(٢) كان هذا الرجل – وهو حماد الراوية – ناقداً حافظاً للشعر ، فكان يشرح للوليد بعض السرقات الأدبية .

(٣) لحّانة : يخطىء كثيراً في اللغة .

(٤) المضيّح : الذي نُضِحَ معظم مائه ، وبقيت فيه بقيّة كَدِرة . ولكنّه هنا اسم ماء (مورد ماء) لبني البكاء . مثل هضْب القليب ، فهو ماء لبني سليم ، وحبر وواهب : جبلان لبني سليم .

ثم جُزْت (تابعْتُ الإنشاد) ، فقال : قفْ ، مـاذا يقـول ؟ فلـمْ أدْرِ مـا يقول ؟ فقال : يا بـنَ أخـي ، أنـا أعلـمُ النـاس بكـلام العـرب . يقـال : تـراءى الموضعان إذا تقابلا)) .

وكان الأصمعي يَعُدّ مروان بن أبي حفصة مولّداً لا علمَ له باللغة . هـذا مـع أنّ دراسي شِعره في زماننـا يشيدون بشعره ، وهـذا الأمـر يلفـت إلى ظاهرتين :

الظاهرة الأولى تعصّب أسلافنا للشعر القديم ، فلم يكـن محـلَّ ثقتهـم إلا ما قيل قبل سنة / ١٥٠ / هـ . وعدُّوا ما بعده مولّداً مُحْدَثاً بعيـداً عـن الأصالـة اللغوية ، يشوبه اللَّحْن . وكثـير مـن شـعر مـروان قالـه بعـد عـام / ١٥٠ / هـ والظاهرة الأخرى أننا لطول عهدِنا بالأساليب ((المولَّدةَ)) ألفناها ، فصار يبدو مثلُ شعر مروان حِيالَها شعراً ممتازاً .

على أن دخول مروان بن أبي حفصة على الخليفة الوليد بن يزيد الأموي إنّما كان لينشده بعضَ ما دبَّجه فيه من مدائح ، لكنّ الكتـب لم تحتفـظْ بشـيء من أشعاره فيه وكأنّما كان ذلك دَرْءاً لسخط العباسيين ، فـأعرض مـروان عـن رواية ما قاله في بني أمية ، وتُنوسي مع الأيّام .

رواية عن أوّل شعره في معن بن زائدة

زعموا أن أوّل قصيدة مدح بها ((مَعْناً)) ليست مِنْ شعره ، وإنّما هي لرجلٍ من اليمامة كان ينشدها بين جماعة من النـاس ، وكـان ذلـك الرجـل قـد أعدّها ليمدح بها مروان بن محمد آخر خلفاءِ الأمويـين ، غـير أن ذلـك الخليفـة قُتل قبل أن ينشده إياها ، وفيها يقول :

مـروانُ يـا بنَ محمـّدٍ أنتَ الذي زيـدتْ بــه شـرفـاً بنو مروانِ

فأعجبت القصيدة ابن أبي حفصة ، فأمهل صاحبها حتى قام من مجلسه ثم أتاه في منزله ، وعرض عليه شراءها منه بثلاثمائة درهم ، فوافق ، فحلّفه مروان ألا ينشدها ، ولا يعود ينسبها لنفسه ، ثم غَيّرَ منهـا أبيـاتاً وزاد فيها وجعلها في معن ، وصار البيت المذكور آنفاً :

معن بن زائدة الذي زيدت به شرفاً إلى شرف بنو شيبان

وبهذه القصيدة نال مروان رِفْدَ معن ، وأصاب غنى وشهرة واسعتين .

وهذه الرواية منقولة في الأغاني لأبي الفَرج ، وهي رواية تنطوي على ما يثير التسـاؤل : كـيفَ يحلّفــه ألا ينسبها لنفسه بعدما أنشدها ((جماعة مـن الناس)) ؟ هل تبقى صفقته سرّيّة ؟ لكنّ أبا الفـرج يضمر عـداوةً لبـني العباس وشعرائهم . ومـن هنـا لا تخلو كتابته من مثل هـذه الوخزات الـتي لا تثبت للتحقيق العلمي المتجرّد .

ويُقال إن معن بن زائدة دخل على أبي جعفر المنصور ، فقال له : يا مَعْن ، أَعْطيت ابن أبي حفصة مائة ألف درهم عن قوله فيك :

معـنُ بن زائدة الذي زيدتْ به شرَفاً إلى شرَفٍ بنو شيبانِ

فقال معن : كلا يا أمير المؤمنين ، ولكنْ لقوله :

ما زلْتَ يومَ الهـاشميّـةِ مُعْلَماً بالسَيف دونَ خليفةِ الرحمنِ

يشير إلى معركة مصيرية خاضها المنصور بشخصه ، وذبّ عنه ببأس نـادر معـنُ بن زائدة ، فاستـحيا المنصور عندما سمع جواب معن ، وتبسَّم وقال : أحسنْتَ يا معن في فِعْلِك .

من لاميّته في معن بن زائدة

تجنّبَ ((لا)) في القولِ حتّى كأنّــه   حرام عليه قولُ ((لا)) حين يُسألُ
تشــابـهَ يـوماه علينــا فـأشـكـلا   فلا نحن ندري أيُّ يومَيْه أفضـــلُ
أيــوم نــداهُ الفخـــرُ أم يـوم بُؤسِه   ومـــا منهمـــا إلا أغرُّ مُفَضَّلُ (١)
بنـــو مطــرٍ يــومَ اللقـــاءِ كـأنَّهمْ   أسودٌ لها في بَطْنِ خَفَّـانَ أَشْبُلُ (٢)
هـــمُ يمنعــون الجـــارَ حتى كأنّما   لجارهــمُ بينَ السِّماكَيْنِ منزلُ (٣)
لها ميمُ في الإسلام سادوا ولم يكنْ   كـأولهـمْ في الجـاهليّـة أولُ (٤)
هم القومُ إنْ قالوا أصابوا وإنْ دُعُوا   أجـابـواوإنْ أَعْطَـوا أطابوا وأجزلوا
ومــا يسـتطيــعُ الفـاعلون فِعالَهمْ   وإنْ أحسنـــوا في النائبات وأجملوا
ثُــلاثٌ بــأمثـــال الجبـالِ حِبــاهُــم   وأحلامُهم منها لدى الوزنِ أثقلُ (٥)

قصيدة أخرى في معن

ولمّا سرى الهمُّ الغـريبُ قريتُه   قِرَى من أزال الشَّكَّ عنه وأزمعا (٦)
عزمتُ فعجَلْت الرحيلَ ولم أكنْ   كذي لُوثَةٍ لا يُطْلِع الهَمَّ مَطْلَعــا (٧)

---

(١) النّدى : الكرم . أغرّ : أبيض

(٢) بنو مطر : قوم معن بن زائدة . خفّان : مأسدة قرب الكوفة . الشبل : ولد الأسد .

(٣) السّماك : السماء .

(٤) اللّهاميم : جمع لهميم ، وهو السابق الجواد .

(٥) ثُلاث : تُخْلط ، تتشابه . حباهم : عطاياهم .

(٦) السرى : السير في الليل . القرى : طعام الضَّيف . أزمع : أسرع ، وعزم ، وجدّ .

(٧) لوثة : استرخاء وحماقة واختلاط . لا يطلع الهمّ مطْلعــاً : لا يُحْسِن التصرّف ، ولا يعرف كيف يحقّق ما يعزم عليه .

فأمّـتْ ركابي أرضَ معنٍ ولم تزلْ
إلى أرضِ مَعْنٍ حيثمـا كـان نُـزَّعا (١)
فما بلغتْ صنعـاءَ حتى تواضعتْ
ذُراهـا ، وزَالَ الجهـلُ عنها وأقلعا (٢)
وما الغيثُ إذْ عمَّ البـلادَ بصَوْبِـه
على الناس من معروف معن بأوسعا (٣)
تـداركَ مَعْـنٌ قُبَـةَ الـدِّين بعدَما
خشَـيِتُا على أوتـادِها أنْ تُنَـزَّعا (٤)
ومـا أحجـمَ الأعـداءُ عنكَ بقيّةً
عليـكَ ولكـنْ لم يـرَوْا فيكَ مَطْمَعا (٥)
رأوا مُخْـدِرا قـد جرَّبـوهُ وعاينوا
لـدى غيلِـه منهـم مَجَراً ومصرَعا (٦)
وليس بثانيه إذا شَـدَّ أنْ يـرَى
لـدى نَحْـرِهِ زُرْقَ الأسنّـةِ شُـرَّعا (٧)
له راحتانِ ، الحتْفُ والغيثُ فيهما
أبَـى اللهُ إلا أنْ تَضُـرَّا وتنفعـا (٨)

---

(١) أمَّتْ : قصدتْ.نزع إلى الشيء : هفا إليه وسعى إليه .

(٢) الذرى : الأسنمة .   (٣) صَوْب الغيث : هطوله .

(٤) أوتاد : دعائم ، مثبّتات . تُنزَّع : تُخْلَعُ .

(٥) لم يعرضْ عنه أعداؤهْ إبقاءً على حياته ، وإنما اجتناباً لصَوْلاتِه .

(٦) مُخْدر : أسد . الغيل : موضع الأسد . مجَرّ : اسم مكـان مـن جَـرّ ، أي أثـر سحبه لفريسته .

(٧) ثناه عن الشيء : صده عنه . الأسنّة : الرماح . شرّع : مصوَّبات إليه .

(٨) الحتف : الموت والفناء .

رثاء مَعْن بن زائدة

كان معن من أحْلَمِ الرجال ، وأشجعهم ، وأسخاهم يداً ، وأكملهم نَعْتاً ، دُسّ عليه أعرابي يستغضبه ، فأتى بكل جَلافة ، وثقل ، فما استطاع فخرَج من عنده وهو يقول :

سألتُ اللهَ أنْ يُبقيكَ ذخراً　　　فما لكَ في البريّة مِنْ نظيرِ

مات معن ، فقال مروان بن أبي حفصة :

يا مَنْ بمطلع شمسٍ ثُمَّ مغربِها　　　إنّ العطاءَ عليكم غيرُ مردودِ (١)
قل للعُفاة أريحُوا العيسَ مِنْ طلَبٍ　　　ما بعدَ مَعْنٍ حليفِ الجود مِنْ جُودِ (٢)
قل للمنيّة لا تُبقي على أحدٍ　　　إذْ ماتَ معنٌ فما ميْتٌ بمفقودِ (٣)

وقال مروان في مرثية أخرى له في معن :

مضَى لِسبيلِه مَعْنٌ وأبقى　　　مكارمَ لن تبيدَ ولن تُنالا
كأنّ الشمسَ يومَ أصيبَ مَعْنٌ　　　من الإظلام مُلْبسَةٌ جِلالا (٤)
هو الجبلُ الذي كانتْ نزارٌ　　　تهدُّ من العدوّ به جبالا (٥)
تعطّلت الثُّغورُ لفَقْدِ مَعْنٍ　　　وقد يُرْوي بها الأسَلَ النِّهالا (٦)
وأظلمت العراقُ وأورثتْها　　　مصيبتُه المجلّلَةُ اختلالا (٧)
وظلَّ الشّام يرجُفُ جانباهُ　　　لركن العزّ حين وَهى ومالا (٨)

---

(١) يخاطب الذين كانوا ينالون من عطايا معن من أهل المشرق والمغرب بأنّ عطاءه توقّف بسبب موته .　　(٢) العفاة : طالبو معروفه . العيس : النوق البيض .

(٣) مات معن ، فأيّ مصيبة في غيره يسيرة .

(٤) الجلال : ما يوضع على ظهر الدابة من مفرش يريح الراكب . كأن الشمس مغطّاة ، والدنيا مظلمة .　(٥) مَعْن طود عظيم لا يضاهى به سواه ، كان مفخرة لقبائل شيبان النزارية .　(٦) الثغور : مواضع المواجهة مع العدوّ . الأسل : الرماح . النّهال : العِطاش .　(٧) المجلّلة : العظيمة . اختلال : اضطراب .

(٨) وهى : ضعف .

وكـادتْ مِنْ تِهامــةَ كـلُّ أرضٍ ومنْ نجد تزولُ غــداةَ زالا (١)
أصـابَ الموتُ يومَ أصابَ مَعْنـاً مــن الأحيــاء أكرَمهمْ فِعــالا
وكـــان النـــاسُ كـلُّهـم لِمَعْـنٍ - إلى أنْ زار حفرتَه - عِيالا (٢)
ولـم يـكُ طـالبٌ للعُرْف يَنْوي إلى غيـــر ابن زائدةَ ارتحالا (٣)
مضَـى مَنْ كان يحمـلُ كـلَّ ثِقْـلٍ ويسبـق فيـضُ نائِله السُّؤَالا (٤)
ولهــفَ أبي عليـكَ إذ اليتــامى غــدَوْا شُعْثــاً كأنّ بهم سُلالا (٥)
أقمْنــا بــاليمــامةِ إذ يَئِسْنــا مقــامــاً لا نـريـدُ لــه زِيالا (٦)
وقلنــا أيـنَ نـرحَـلُ بعـد مَعْـنٍ وقــد ذهــبَ النَّــوالُ فــلا نـوالا

ومرّ بنا أن هذه القصيدة ، أو البيتين الأخيرين فيها خاصّـة ، قـد أغضبا الخليفة المهديّ ، وطردَ من أجلهما مروان بن أبي حفصة من مجلسه ، ومَنْ يقـرأ القصيدةَ كاملة يجدْ فيها من المبالغة والتعسُّف والكذب ما يسـوّغ معـه امتعاض المهديّ وكل ذي نفسٍ كريمة ، وأي مُنْصف يرضـى أو يصـدّق بـأن الجـود قـد ماتَ بعد معن ، على الرغم من جود معن وأريحيّته ؟ وهل معنٌ أفضـل مـن أبي حنيفة والشـافعي ومـالك وعبـد الله بـن المبـارك وعشـرات الألاف مـن السّـادة الأجلاء الذين كانوا في تلك الفترة حتى يتطاول عليهم مروان فيقول :

قُلْ للمنيّة لا تُبقي على أحدٍ إذْ ماتَ مَعْنٌ فما مَيْتٌ بمفقودِ

---

(١) تهامة : موضع قرب البحر الأحمر .

(٢) يزعم الشاعر أن كل الناس كانوا عيالاً على مَعْن هو ينفق عليهم .

(٣) العرف : المعروف ، العطاء .

(٤) النائل : العطاء .

(٥) سلال : سلّ .

(٦) زيال : فراق .

لكنّ حبّ المال أزاغ لسان مروان عن قول الحقّ وكلمة الصّدْق .

بَيْدَ أنّ أسلوب مروان الناصع قد أطمع جعفراً البرمكي ، وكان للبرامكة مطامح سياسية دفينة ، فاستنشد جعفرٌ مروانَ القصيدة ، فأنشدها إياه ، فلما فرغ منها قال له جعفر : هل أثابك أحدٌ من ولده وأهله على هذه شيئاً ؟ قال : لا . قال جعفر : فلو كان معن حيّاً وسمعها منك ، كم كان يثيبك عليها ؟ قال : أربعمائة دينار . قال جعفر : لكنّي أظنّ أنه كان لا يرضى لك بذاك وقد أمرْنا لك عن معن بضعف ما قلتَ ، وزِدْنا نحن مثل ذلك ، فاقبضْ من الخازِن ألفاً وستمائة دينار قبل أن تنصرف إلى رحلك .

بعد معن

بعد مَعْن كان اتصاله بأمير المؤمنين المهدي ، ومرّ بنا أوّل لقاء بينهما وكيف طردَ المهدي مروانَ من مجلسه ، لكنه لما جاء في العام القابل أنشده لاميّة سياسية تنتصر لآل العباس في أحقيّتهم في الحكم ، وهي لامية نالت إعجاب الخليفة ، وصار يهبُ هذا الشاعر من أَعْطِياته . ومرّ بنا نموذج من لاميّة مروان وأضيفُ هنا أن الشاعر لما قرأ أول شطر من مطلع القصيدة :

طرقَتْك زائرةً فحيِّ خيالَها

قال أبو محمّد اليزيدي (يحيى بن المبارك) : لَحن (مروان) فقال مروان : ياضعيف الرأي أهذا يقال لي ؟ ويردف بالمصراع الثاني :

بيضاءُ تخلِطُ بالجمال دلالَها

فطرب عندئذ كلّ الحاضرين ، وسخا عليه أمير المؤمنين ، وصارت هباته له لا تنقطع ، وكان مما حباه إيّاه حديقة ، وللشاعر وصف لها .

الخاتمة

لم يكن مروان بن أبي حفصة يذيع قصائده بمجـرّد الانتهاء من إنشـائها وإنّما كان علـى حـدّ قوله يقولها في أربعة أشـهر ، ويتنخّلّهـا في أربعـة أشـهر ويعرضها في أربعة أشهر على الرواة والنقاد ، ثم ينشـرها . وإذا مـدح معن بـن زائدة جنَح إلى الأسـلوب البـدوي في القـول ، وإذا مـدح المهـدي رقّـق أسـلوبه وماشى به الحضارة في بغداد ، ولكنّ النَّمط الأوّل هو الغالب على شعره ، لأنّـه كان إذا مدح الخليفة (المهدي ، أو الرشيد) أو البرامكة سَرْعان مـا رجـع إلى اليمامة .

ولم يكـن الشـريف المرتضـى ليرتـاح إلى شـعر مـروان بـن أبـي حفصــة لاختـــلاف سيـــاســـة كـــلّ منهما عن الآخر ، وبدا موقف المرتضى في أماليـه (٥١٨/١) عندما عرض لشعر مروان فقال : متساوي الكلام متشابه الألفـاظ غير متصـرّف في المعـاني ولا غـوّاص عليهـا ولا مدقّـق لهـا ، مدائحـه مكـرَّرة الألفاظ والمعاني ، وهو غزير الشـعر قليـلُ المعنـى ، إلا أنّـه مـع ذلـك لـه تجديـد وحِذْق .

ومـــات مـــروان بن أبي حفصة ســـنـــة / ١٨٢ /هـ ، وقيل بعـد عـام / ١٩٨ / ، أيّام المأمون ، وقيل قُتِلَ قتلاً بيد أحد مناوئي السياسة العباسيّة .